

أربع كلمات في الصدقة

"مَن يزرع بالشحّ فبالشحّ أيضاً يحصد، ومَن يزرع بالبركات فبالبركات أيضاً يحصد"

إنّ مسألة التفاوت الطبقيّ تزداد اليوم في مجتمعاتنا، ولعلّها السبب العميق وراء كثير من التبدلات التاريخيّة والسياسيّة. ولا يمكن للمسيحيّ أن يقف أمام مشهد المعوزين والمحتاجين وقفة حياد، إلّا إذا كان يفهم إنجيله بشكل خاطئ.

لقد انطلق بولس يبشّر بيسوع المسيح، بموته وقيامته. لكنّه عندما ظهرت بعض الحاجات وظروف من العوز عند مسيحيّي أورشليم عندها لم يستطع إلّا ينظّم حملات جمع مساعدات للإخوة. لقد تعرّض المؤمنون في أورشليم للنهب والاضطهاد من بني جنسهم بسبب الإيمان. ولهذا يحثّ بولس الرسول الكنائس التي في الراحة أن تفكّر عملياً بحاجات تلك الكنائس التي في شدّة. هو برسالته التي سمعناها يمرّ على أربع كلمات أساسيّة في مفهومنا للصدقة أو الإحسان. ونستطيع بهذه المفاتيح الأربعة أن نلج إلى كلّ عمق وفلسفة المشاركة الأخويّة مع المحتاجين. وهذه الكلمات هي "الزرع، والقلب، والله، والشكر".

فالزرع هو تماماً كالإحسان. حين يرمي الزارع بذاره في الأرض يشعر وكأنه يبذّر، لكنّه إذا رمى البذار بالشحيح، بالشحيح يحصد. وإذا رمى البذار بالبركة فبالبركات يحصد، ما يبدو أنه يبذّده يجد أنه يكثره! هذه الخبرة التي عند الزارع من الحياة العملية يختبرها من يوزّع الخيرات. فبمقدار ما نبذد هنا بمقدار ما نحصد خيرات أبدية، أولاً الروحيّة وأحياناً أيضاً دنيويّة. بقدر ما نبذد بقدر ما نشارك فعلاً للإخوة المحتاجين. فنحن نشترى، بما نبذده، العلاقات الأخوية والمحبة التي نريدها. وهذه الأخيرة غاية الأولى وهي أثنى بكثير من المقتنيات. ويبدو للزارع أنّ البذار يموت حين يرميه، لكنّه يعرف أنّ الحبة إن لم تمت لا تعطي ثمراً. وهكذا المعطي الواعي، حين يبذّر يتهلّل وبوزّع ببشاشة وفرح، لأنّه يعرف أنه بالواقع يجمع ما هو أثنى. والقلب، هو المعيار الحقيقيّ لمقدار ما يجب أن نوزّعه من الخيرات التي بين أيدينا. يجب إلّا نعطي خجلاً ولا بالأحرى طلباً للمجد ولا خوفاً من أيّ شيء، ولكن علينا أن نعطي المقدار الذي يمليه علينا قلبنا.

وهذا يعني تماماً، أنّ شرط الإحسان هو الحرّية، التي بدونها لا يترافق الإحسان مع الفرح. يجب أن نعلّم قلبنا أولاً أن يحبّ العطاء، وبسخاء. هكذا يصير الإحسان طريقاً لطهارة القلب ونقاوته التي بدونها لا يرى الإنسانُ اللهَ. لكن إذا ارتعش القلب للحظة أمام "التبديد" وشعر وكأن ذلك "خسارة"، فلا ننسى، ما ينصح به بولس الرسول، أنّ الله قادر أن يزيدنا كلّ نعمة ويؤمّن لنا كفافنا. فهذا القلب يجب أن يكون ثابتاً على صخرة الإيمان ليصير سخيّاً. ليست قيمة الصدقة بمقدارها، وإنّما بمقدار المحبة التي تحملها. هكذا تفوّق، في نظر يسوع، فلسُ الأرملة على كنوز الآخرين. يجلب العطاء من كلّ القلب الحرّية والفرح، وهذا ما يحدّد المعيار الحقيقيّ للسخاء.

أما الله، بالنسبة للإحسان، فهو المعطي وهو المتقبّل. ليس لنا شيء بالأساس لم نأخذه. ليست الخيرات منا بل من الله. فهو "من يرزق الزارع زرعاً"، بحسب بولس الرسول. والزارع هنا في لغة هذا النص هو المحسن، والزرع هو الإحسان. فالله هو الواهب الوحيد لكلّ الخيرات وهو مالكها أيضاً. أمّا نحن فنوزّع مما له ومما أودع بين أيدينا. كما نعرف أنّ الله قد وحد نفسه بالفقراء حين قال "كلّ ما فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه". لذلك إنّ الله أشبه بمن يعطينا واهباً بيد ويسألنا مستعطيّاً باليد الأخرى، هناك يهبنا لأنّه يحبّنا وهنا يستعطينا لأنّه يحبّ الفقراء. نعم إنّ كلّ الخيرات ما هي إلا أداة يمرّرها الله الأب الحنون على دروبنا، لكي نأخذ منها "كفافنا" ونشارك بالباقي إخوتنا. هذه الحركة تمتحن أمام الله حرّيتنا وروحانيّتنا ونظرتنا للأخر وللمال، وهكذا تتعرّف شخصيّتنا وتتحدّد دينونتنا، كـ"بر" أو "إدانة".

والشكر إذن، هو الحركة الحقيقيّة لكل ما يجعله الله في طريقنا أو يودعه بين أيدينا. إذا كان الله هو واهب كلّ شيء وهو بالنهاية القابل أيّ شيء، عندها كلّ شيء هو تعبير عن علاقتنا بالله. فهل نتناول منه هباته شكريّاً أم أنانيّاً؟ هل نتناول كلّ هباته فنأخذ كفافنا بشكر ونعطي الفائض بتهلّل؟ أم أننا نجمّع ما لدينا وكأنه لنا، ونبعد الله والقريب عن حقّ مشاركتنا به أنانيّاً؟

يؤمن بولس الرسول، بالكلمات القليلة التي سبق وسمعناها، أنّ الله لن يجعلنا في عوز حين نشارك. لكن هباته تمتحننا. ليس سبب العوز في العالم نقصان الخيرات أبداً، إنّما هو نقص المحبة. لذلك لا يتملّك علينا الخوف إنّما لتملأ قلبنا البساطة التي تجعله يعطي بسخاء ويحيا في الخيرات كائناً شكريّاً يفرح بزرع العطاء بسخاء. لأن هذا القلب يؤمن أنّ الله هو الموزّع وهو القابل وكلّ شيء أُعطي لنا منه لـ"ينشئ شكراً"، آمين.